حياة جونسون لبزويل

بقلم

الدكتور نظمى لوقا

الأستاذ بكلية المعلمين

يعتبر جيمس بوزويل المولود فى سنة ١٧٤٠ والمتوفى فى سنة ١٧٩٥ بإجماع الآراء « أمير كتاب السيرة من الإنجليز » . لا يختلف فى هذا من يقدرون صفاته الشخصية ومن يزدرونها ... والفريق الأخير من النقاد هم الكثرة الغالبة . فما كانت له فى نظر معاصريه قيمة ترتفع به فوق مستوى الأحلاس والطفيليين على مجالس أهل الفكر والأدب . . فقلما اجتمع النقيضان فى تقدير إنسان : إكبار فنه وازدراء شخصه ، كما اجتمعا فى شأن جيمس بوزويل .

وكان والده قاضياً إسكتلندياً لقبه الفخرى « لورد أوكنلك » ، أرسله لتلقى العلم فى جامعة أدنبره المشهورة ، عاصمة إسكتلندة ، وإلى جامعة جلاسجو . وكان لقاؤه لصامويل جونسون فى مايو سنة ١٧٦٣ ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة . ثم رحل إلى أوترخت فى ألمانيا فى السنة نفسها لإتمام دراسته العليا ، وكانت له هناك قصة حب مشهورة مع « إيزبيلا زويلن » ، ثم طاف بحواضر أوروبا الكبرى ، والتقى بأقطاب الفكر والأدب ، وفى طليعتهم معاصراه العظيمان روسو وفولتير ، وتولى روسو تقديمه بخطاب إلى الجنرال باسكالى باوولى الزعيم الوطنى الكورسيكى الذى كان يتولى قيادة الحركة الوطنية الثورية المطالبة باستقلال تلك الجزيرة التى كتب لها فى ظهر الغيب أن تنجب لفرنسا أعظم قوادها : « نابليون بونابرته » ، كما ينطق اسمه فى لغة مسقط رأسه ... وقد استمرت هذه الرحلات إلى سنة ١٧٦٦ .

وفى هذه السنة عينها قبل فى قائمة المحامين بإسكتلندة وبدأ إنتاجه الأدبى بنشر « دوراندو : حكاية إسبانية » فى سنة ١٧٦٧ وتزوج من سيدة لابائنة لها فى سنة ١٧٦٩ عاشت معه عشرين عاما ، وتركت له حين ماتت فى سنة ١٧٨٩ عدداً كبيراً من الأبناء نبغ منهم جيمس بوزويل الأصغر الذى صار من أعلام المحاماة وكان له نشاط أدبى ولا سيما فى تحقيق ونشر آثار شكسبير متمماً بذلك عمل « مالونى » .

وفيما بين سنتى ١٧٧٢ و ١٧٨٤ كان يذهب إلى لندن ويزور جونسون فى أوقات متفاوتة . وفى إحدى تلك الزيارات فى سنة ١٧٧٣ قدمه جونسون إلى « الندوة الأدبية » التى أسسها هو وصحبه وصار بوزويل عضواً فيها بفضل تلك التزكية .

وفى سنة ١٧٨٦ قبل بوزويل محامياً فى المحاكم الإنجليزية وزادت زياراته للندن لهذا السبب وكثر اتصاله بجونسون وندوته . وفى سنة ١٧٨٩ استقر به المقام فى العاصمة الإنجليزية بصفة دائمة . وتقدم للانتخابات فى سنة ١٧٩٠ فخذل ، وفى سنة ١٧٩١ نشر كتابه العظيم « حياة صمويل جونسون » .

ولبوزويل مقالات يربو عددها على السبعين نشرها فى « مجلة لندن » فيما بين سنتى ١٧٧٧ و ١٧٨٣ يكثر فيها من الاستشهاد بالمأثورات والنصوص اللاتينية والإغريقية ويصدر فيها عن تحيز ظاهر لآرائه السياسية والاجتماعية . ولكن يذكر له بالفضل ما جاء فى بعض تلك المقالات من تنديد بقصر نظر البشر الذين « يعدون عن عمد وروية وسائل الدمار التى يقضون بها على أبناء جنسهم » ، فكان داعية للسلام ، كما كان من أكبر المدافعين عن حقوق الشعوب فى التحرر ، ولا سيما كورسيكا .

ومن آثاره أيضاً « يوميات جولة فى جزائر هبرايدز الإسكتلندية مع الدكتور جنسون » ، كتبها فى سنة ١٧٧٣ ولم تنشر إلا فى سنة ١٧٨٩ ، ويعتبر هذا الكتاب من أبرز وأمتع كتب الرحلات ، حتى لقد وصفه تريفليان بأنه « أخف وأرشق كتب الرحلات فى اللغة الإنجليزية » . وهو بلا شك أفضل من هذه الوجهة وأكثر حيوية من الكتاب الذى أصدره جونسون نفسه عن تلك الرحلة . وأوضح صفات بوزويل فى ذلك الكتاب هو « حب الإفضاء » ... والعجز عن التكتم والتستر مهما كان الموضوع ومهما كانت الظروف ... وهى صفة سنجدها على أتمها فى كتابه المعجز « حياة جونسون » ، وسنزداد لها فى ذلك المقام بحثاً وإحاطة . فهو فى تلك السيرة يذكر لنا كل شىء ، ولا يخفى عنا شيئاً ، كالمرآة الصافية التى تعكس كل ما يواجه صفحتها ... ولا يعرفنا بخلائق جونسون وحده ، بل يعرفنا أيضاً بصحبه وخلطائه الأعلام مثل بيرك وجاريك وجولد سميث ورينولدز .

وما ظنك برجل يسجل فيما يسجل آراء الناس فيه ، وسلوكهم معه ، فإذا إجماع على الاستهانة بعقله ، واستحماق بدواته . فلم يتحرجوا عن مجابهته بذلك الرأى فيه .. وهو لا يبالى ما يقولون وما يفعلون ؟

وقد دمغه « ماكولى » فى دراسته لشخصيته بأوصاف ونعوت لصقت به وسودت صورته فى نظر الناس . فهو على حد قوله : دنىء متعجرف بخيل ثرثار أحمق فضولى . « معصوم » من التوفيق فى أسئلته ، يسأل حين ينبغى الصمت ، ويوجه السؤال الوحيد الذى ينبغى ألا يوجه إلى المسئول . ولا يدرك معنى لألفاظ الحرج أو التكتم أو الاحتشام . ينقل الأحاديث بين الناس غير مبال أو غير مدرك لمغبة الوقيعة . إذا رأى سيداً يرتدى ثوباً بادى القدم أو الرثاثة لم يتجاهل الأمر ، بل يسأله سؤالا مباشراً أمام الناس عن علة ذلك ! وإذا سمع كلمة جارحة عن صديق نقلها إليه وذكر له اسم مغتابه ! يقاطع المتحدثين بملاحظات فجة ولا يبالى زجرهم إياه ! لا يعرف معنى الكرامة فى تزلفه وفرض صحبته على النابهين . ولا يعرف حداً للإعجاب ببطله جونسون حتى بلغ عنده منزلة التقديس الأعمى وهو يضحك منه .

ولكن ماكولى ينصفه ، أو يظن أنه ينصفه حين يقول : « إن حياة جونسون » عمل عظيم . بل عظيم جداً بلا شك فإن قيل أن هومر رأس الشعراء ، وديموستين رأس الخطباء ، وشكسبير رأس كتاب المسرحيات ، فمن الحق أن يقال كذلك أن بوزويل رأس كتاب السير . فما من صاحب قلم يلحق به فى هذا المضمار ... وما من تناقض فى هذا . فكثيرون من أكابر الكتاب كانوا فى حياتهم الخاصة أشبه بالبلهاء . ومن هؤلاء جولد سميث ولافونتين . ولئن قيل إن هذا الفريق من الأدباء

أدركوا المجد على ضعفهم .. فإن بزويل ينفرد دونهم بأنه نال المجد عن طريق ضعفه . أولئك يحسب لهم أنهم تغلبوا على عقابيل الضعف . أما هو فكان ضعفه مطيته إلى الخلود ! فلولم يكن أحمق كبيراً لما وسعه أن يكون ذلك الكاتب الكبير ! فهو عبد مهين فخور بمهانة عبوديته ! وأضحوكة للناهين يعتز بمكانه الزرى من مجلسهم الرفيع ! ولغفلته عن سخافة مسلكه ووضعه استطاع أن ينفذ إلى الصف الأول من الكتاب فيحتل مكانه إلى جوار ، بل وفوق تاكيتوس وألفييرى ، بل وفوق معبوده جونسون نفسه ! فلا نظير له فى دقة الملاحظة وشدة الاهتمام بالتقصي والتلصص واستراق السمع والنظر ! وهو ذوموهبة فذة فى تصوير الحركات ورسم الجو والإحاطة بمختلف التيارات ، لا يدع شاردة ولا واردة إلا ذكرها ، ولو وصمته بالهزء والعار . فمن فضائله الأدبية أن يجاهر بما لوحدث لسواه لبالغ فى كتمانه أو لانتحر إذا أفشاه غيره عنه أما هو فيعلنه من فوق أسطح البيوت ويصيح به على الملأ . . .

وهذه الخلة : خلة الإفشاء ، هى سر حماقته ، وهى كذلك سر احتقاره بين عشرائه ، ولكنها أيضاً سر تفوقه فى كتابة السيرة .

إن بوزويل ينقل الوشاية بنفس الروح العاجزة عن التمييز التى يفشى بها أسرار نفسه وسوءاته . إنه لا يقصد السوء بالوشاية ، إلا بقدرما يقصد شريط آلة التسجيل السوء حين « تنطبع » عليه أوبق الأحاديث فيعيدها بحذافيرها .

وليس أدل على صدق هذه الخلة وتأصلها فيه من منهجه فى كتابة سيرة « معبوده » جونسون ...فهو يورد كل كبيرة وصغيرة ، لا ينفى الشوائب ، ولايعمد إلى التحسين والتجميل ... وعلة ذلك أنه ينظر إلى جونسون نظرة « المحب » الحقيقى . فيراه حبيباً إلى نفسه كما هو ... فنقائصه فى نظره ليست أقل قيمة أو أدنى جدارة بالحب من مزاياه ... ولذا رسم صورته على علاته ، بندوبه وقطوبه وأضوائه وظلاله . لم يظلمه ولم يتحيز له . وكذلك فعل مع سائر الدائرين فى فلك جونسون .

وإننا لنغمط بوزويل حقه إذا غفلنا عن سلاسة أسلوبه فى الرواية ،ورشاقته وقدرته الفذة فى استخدام الكلمة الموحيــة والعبارة المصورة ذات الظلال والأصداء الفنية . فهو بلا شك من أقدر المصورين باللفظ ، كما أنه من أصدقهم وأكثرهم تحريا للأمانة

ومن محاسن الصدف أن يكون جونسون شخصية فذة ، فينال أدبه تقديراً فوق حقه بكثير فى زمنه ، مع أن أحاديثه أفضل من كتاباته بكثير جداً ... فوجد الكاتب الذى يسجل درر أحاديثه ويضمن له الخلود بذلك التسجيل الذى قدم للأجيال المقبلة أعظم سيرة لأبرع متحدث بقلم أحمق صديق !

*

ومن الخير أن نذكر هنا قبل الشروع فى تلخيص ذلك الكتاب الفذ ، أن جونسون كان فى الرابعــة والخمسين من عمره حين عرفه بوزويل . وقد أحصى المدققون الأيام التى قضاها الرجلان معاً فى غضون الأعوام العشرين التالية حتى وفاة جونسون فلم تتجاوز مائتين وستة وسبعين يوماً ، بما فى ذلك مدة رحلتهما فى جزر إسكتلندة الغربية (الهبرايدز) . فما لاشك فيه إذن أن الثغرات التى واجهت بوزويل ضخمة ، وكان عليه أن يستكملها بالسعى والتقصى والتمحيص . والحق أن الرجل لم يدخر وسعاً فى سبيل ذلك ، فســافر ، واطلع ، واستجوب ، وأحرج ، وقارن ، ومحص . وله الفضل الأكبر فى « چنسنة » ما سمع وما جمع من النوادر — على حد تعبيره — أى أنه تقمص روح جونسون لكثرة ما تشربه من طباعه وأسلوب تفكيره ، فاستطاع أن يقيس المسموعات بعضاً إلى بعض ،

ويضفى على ما يصح منها روح الرجل ولهجته ، فإذا هى نابضة بالحياة كأنما هى خارجة من فمه لساعتها . ولولا ذلك لكانت « كلمات ميتة » خير ما تصل إليه أن تكون كالمومياء المحفوظة بالتحنيط !

ولا ننسى فضل « فضول » بوزويل الفطرى ، فطالما تعقب جونسون فى حياته بالأسئلة الملحة عن كثير مما فاته فى ماضى حياته ، وعن طفولته وصباه على الخصوص غير مبـال بما يناله من زجر « الرجل الكبير » حين يضيق صدره — وما أكثر ما كان يضيق — وينهاه عن « قيل وقال وكثرة السؤال » . ومن حسن حظ قراء الأدب أن بوزويل كان صفيقاً « لا يعرف الحياء ولا يردعه زجر عن إشباع فضوله » وأنه كلما حصل على نبذة جديدة بالتسجيل كان يسجلها ، ولو كان القوم على مائدة الشراب ، فلا يستنكف أن يخرج كراسته وقلمه !

ويبدأ الكتاب ببيان طريقته فى كتـابة « سيرة الحياة » وأنها خلاف التقريظ الذى يزيف الحقيقة جرياً وراء مجاملة جوفاء . وأن الظلال فى الصورة مكملة للأضواء . وأن المضاهاة بين الأقوال والمؤلفات خطة لا بد منها حين يكون المترجم له علما فى التأليف وسيد بلغاء عصره ومتحدثيهم . ثم يشرع فى الكلام عن أبوى جونسون ومنبت أرومته ليتابع مجرى حياته من المنبع إلى الختام المحتوم ، وعلى شطآن ذلك التيار العرم أدغال ومروج ، وتلال وصحارى ، وثلوج تكسو القمم ووهاد تضطرم بالقيظ ، وبراكين ثائرة ، وعيون ثرارة ، وتقلبات فى المناخ والمنتجع ، يصفها وصف خبير ، ويسجل دقائقها التى سمعها أو جمعها فيبعث فيها الحياة .

إنه ابن مايكل جونسون من أهالى دير بيشاير . وهو رجـل مغمور النسب استقر فى ليشفيلد يبيع الكتب والأدوات المكتبيـة فلا يرزق من ذلك إلا الكفاف على جهد ومشقة . وأمه « ساره فورد » من أسرة عريقة فى وارويكشاير . وهو بكر أبويه . أنجبه أبوه وهو فى الثانية والخمسين من عمره فى شهر أغسطس سنة ١٧٠٩ ، ودخل المدرسة العامة فى مسقط رأسه سنة ١٧١٧ وأصيب فى طفولته بداء الملوك كما كانوا يسمونه فى ذلك الزمان . وهو ضرب من السل أهم أعراضه تضخم الغدد اللمفاوية ، ولاسيما ما يوجد منها فى العنق . وكان الشائع أن وسيلة الشفاء من ذلك الداء هى « لمسة الملك » . فحمل إلى لندن لتلمسه الملكة آن . ولكن لمسة الملكة فى هذه المرة لم تأت بمفعولها المرتقب ، فشوه المرض وجه صمويل جونسون ، وأثر على قوة أبصار إحدى عينيه تأثيراً كبيراً حرمه من نور تلك العين مدى عمره .

وكان « سام » الصغير كسولا ، بيد أنه أوتى موهبة خارقة فى الحفظ ، وقابلية كبيرة للتعلم . فجعل يلتهم الكتب ويتعلم اللغات ويطالع فيها شتى المصنفات التى تقع تحت يده حيثما اتفق . ويعى ما فى بطونها ويستوعبه كما يستوعب الأسفنج الماء . . !

ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره كتب له أن يذهب إلى جامعة أكسفورد . وما كان ليتسنى له هذا على إملاق أبويه لولا أن عميلا ثرياً من عملاء أبيه أعجب بذكائه وسرعة بديهته وقوة عارضته فوعد أن يمده بما يعينه على التعليم هناك . ثم نكل ذلك الثرى به وأخلف وعده ، وترك « سام » أكسفورد من غير أن يظفر منها بإجازة التخرج بعد أن قضى بها ثلاث سنوات (من ١٧٢٨ إلى ١٧٣١) كان فيها طالباً خارقاً للمألوف فى الطلاب : يدهش معلميه بنصوص من المؤلفين اللاتين لا يكاد يعرفهم أحد فيكسبه ذلك إعجابهم وتقديرهم ، ثم يختفى عن الأنظار بغير اعتـذار ، فإذا عاد وسأله المحاضر عن علة تخلفه ، قال ببرود : « كنت أرتاض فى الخلاء ! »

والحقيقة أنه كان يتغيب تحت ضغط إحساسه بهوان فقره ، وتهرباً من نظر زملائه إلى أصابع قدميه وهي تطل من حذائه البالي . وحدث ذات يوم أن ترك له بعضهم حذاء جديداً على باب حجرته في المسكن الجامعي ، فثار غضبه وألقى بالهدية بعيداً عن بابه !

ومارس جونسون التعليم زمناً بعد مغادرة أكسفورد ، وفي سنة ١٧٣٥ تزوج من أرملة تكبره بعشرين عاماً ، وحصل منها على بائنة متواضعة افتتح بها مدرسة خاصة قرب مسقط رأسه في سنة ١٧٣٦ ، فلم يقبل عليه إلا ثلاثة تلاميذ ، أحدهم « دافيد جاريك » الذي صار أعظم ممثلي زمنه . فتبخر الجانب الأكبر من الجنيهات السبعمائة التي تلقاها من زوجته ، ولم يبق له إلا حبها . والحق أنه كان يحبها حباً صادقاً ، وظل وفياً لها بعد مماتها .

ورحل مع تلميذه جاريك إلى لندن وقد عول على التكسب بقلمه . فعانى من شظف العيش سنوات كان حسبه فيها أن يعيش على شلن واحد في اليوم ، إذا قيض له أن يجد ذلك الشلن . وظل يقاوم الفاقة وسوء التقدير ، وسوء الصحة ، يعمل مغموراً في الصحافة وفي خدمة الناشرين ، وكان أول عمل أدبي أذاع شهرته بين أهل الأدب قصيدته الساخرة «لندن» على غرار الأهجية الثالثة لجوفينال . ولكنه لم ينل لقاء ذلك العمل المرموق سوى عشرة جنيهات !؟

وزادت صحته سوءاً فصار نهبا لنوبات من الكآبة والسوداء والتشنجات . وفي منتصف عمره أصيب بالربو . وأجرت عليه شهرته البالغة رزقاً محدوداً بكتابة المقدمات ، والتقارير البرلمانية والمقالات المتميزة بالرصانة وقوة العبارة . وفي سنة ١٧٤٤ زادت شهرته رسوخا عندما نشر كتابه عن سيرة صديقه ريتشارد سافيدج .

وفي سنة ١٧٤٧ نشر الخطة التفصيلية لقاموس اللغة الإنجليزية ، وهو عمل لغوي ضخم كان حريا في حد ذاته أن يكفل له بقاء الذكر . واهتمت الأوساط الأدبية بذلك المشروع ، وعكف عليه في « نوبات » متقطعة من العمل الدائب المحموم على مدى ثماني سنوات . واستطاع فضلا عن ذلك أن ينشر فيما بين سنتي ١٧٥٠ و ١٧٥٢ مجلة نصف أسبوعية سماها « الهائم » حظيت بنجاح كبير .

وفي سنة ١٧٥٢ ماتت زوجته ، فنزلت به تلك الكارثة نزول المزلزلات المصميات ، ولم ينقذه من آثارها إلا انكبابه على العمل ولياذه بتدينه الذي كان مشوباً بالكثير من الخزعبلات .. وبفضل هذا التداوي بالعمل المضني من الأسى والوحشة تمكن جونسون من إتمام القاموس الكبير الذي يعتبر أول كتاب من نوعه في الإنجليزية سنة ١٧٥٥ . فأدهش الرأي العام باقتداره على هذا الجهد الفردي العنيف بحيث أنجز وحده ما ترصد له الدول الأموال ، وتحشد له جهود عشرات الرجال . فلا عجب أن ينصب من ذلك اليوم ملكاً على الحياة الأدبية ، قوله الفصل ؛ وحكمه لا يرد . وتسابقت المحافل على تقديم آيات التقدير لشخصه وعمله وصار الناس يتباهون بدعوته إلى قصورهم ، ويتهافتون على مجلسه .

وفي سنة ١٧٦٢ منحه الملك جورج الثالث معاشاً سنوياً سخياً هو ثلثمائة جنيه كفته هموم العيش وأراحته من النضال في سبيل القوت . وفي سنة ١٧٦٣ التقى به بوزويل . فيصف لنا كيف كان « الرجل الكبير » يضحك فيرتج بدنه الضخم وتهتز لقهقهته جدران البيوت ! وخلقته المخيفة تذكر الرائي بوحيد القرن . وما كان أقل من وحيد القرن ضراوة إذا استثير للهجوم ، فهو في عنف الجدل « يرفع هراوة هرقل ... لماذا ؟ ليسحق فراشة أو بعوضة ويثير إعصاراً ليطرد ريشة أوزة أو يقصي عوداً من القش ! ... »

وإذا أكل أقبل على الطعام غير مكترث بما يكون من مظهره فيكثر من الألوان الشعبية الشهية ، ويعب من النبيذ عباً . أما ثيابه فمهملة سيئة المنظر كالحة اللون عليها اللطخ والأوضار من قطرات المرق ! وصوته فى الحديث مرتفع . ولهجته خشنة ، ووجهه محتقن حين يناقش ، يزداد انتفاخاً على انتفاخه ، ويهيل العبارات الساحقة على خصمه ... ولا يحمل فى النهاية ضغناً لأحد . وما أكثر ما كان ينحاز للجانب الضعيف فى المشكلات عند التناظر أو النقاش ، لمجرد إثبات قوة عارضته . فأى فضل فى إثبات ما هو ثابت ؟ إن الفضل أجمع فى إثبات مايبدو ممتنعاً على الإثبات !

إن جونسون فى تلك الفترة مواطن لندنى لا يؤثر شيئاً على التسكع فى الشوارع الحبيبة إليه ، ولا سيما « فليت ستريت » ويظل منذ العصر إلى قبيل الفجر متنقلا بين المقاهى والمطاعم ، والمعجبون يحفون به ، وهو ينطلق على سجيته فينحمس هذا ويصرع ذاك ، فى أقوى منطق وأجهر صوت وأخف روح وأمتع سخرية . ولا تكاد تنفد نوادره ولواذعه ونكاته .

وفى سنة ١٧٧٣ قام برحلة الى جزائر اسكتلندة الغربية وفى صحبته بوزويل ، وبعد عامين نشر كتاباً عن تلك الرحلة اسماه « يوميات جزائر الهابرايدز » . وفيما بين سنتى ١٧٧٩ ، ١٧٨١ نشر أجزاء كتابه الكبير عن « حياة الشعراء » وهو النموذج البارز لطريقته فى النقد الأدبى .

وكانت جامعة دبلن قد منحته الدكتوراه فى القوانين سنة ١٧٦٥ ، ومنحته جامعة أكسفورد الدكتوراه فى القانون المدنى سنة ١٧٧٥ ، فأظهرت الجامعات الإنجليزية بذلك العمل تقديراً سليما للرجل الذى لم يتخرج فى الجامعة ولكن تأثيره على الحياة الأدبية فى عصره كان أقوى من تأثير سائر الجامعات..؟

وفى أواخر عمره أصيب بشلل جزئى فتجلد إلى أن شفى منه تقريباً ، ثم مرض مرضه الأخير فى سنة ١٧٨٤ ودفن فى كتدرائية وستمنستر .

والكتاب يتعقب صلاته بجميع الأدباء البارزين والأحزاب السياسية ويكشف عن رجل قوى العقل ضيق الأفق كثير التحيز ، ينكر ولا يبالى ، ويعادى فلا يقتصد . وما ظنك بمن كان يزدرى « روسو » و « فولتير » ولا يراهما على شىء ؟ وما ظنك بمن ظل ستة شهور يأبى أن يصدق ما وصف به زلزال برشلونة المشهور ويعتقد أن شيئاً من ذلك القبيل ممتنع الحدوث ... ويصدق فى الوقت نفسه تصديقاً أعمى حديث الجن والعفاريت . ويخرج لرصد الأشباح فى بعض الأزقة التى قيل له إنها مسكونة . ويغضب من صحبه الذين لا ينقادون له فى ذلك العمل الجاد ؟

وكتاب بوزويل تقوم قيمته على حيوية تصويره وعلى أمانته فى إمدادنا بجميع جوانب شخصية المترجم له ، غير مكترث لأى اعتبار من الاعتبارات فى هذا السبيل . يسجل ما سمع ، ويجمع من الثقاة ما لم يسمع بنفسه ، ويقارن ويثبت المصادر حتى لا يخدع أحداً فى قيمتها . ولم يحل إعجابه المفرط ببطله المعبود دون ذكر الحقيقة التى قد تسئ إليه ، أو تعزز سوء رأى شانئيه . ولا يتسنى للقارئ تقدير ذلك كله عن طريق الشرح المسهب ، بل يغنى فى هذا الصدد تقديم النماذج مالا يغنى التعليق ومن هذه النماذج — وهى قطرة من بحر زاخر — سيرى القارئ علة افتتان دارسى الأدب الإنجليزى بذلك الكتاب ، بل افتتان كل إنسان به أيا كانت جنسيته ، لأنه نمط فريد فى أدب السير ، ونموذج لايتيسر النسج على منواله ، إلا لمن كان مثل بوزويل فى مزاياه الأدبية التى ترجع إلى نقائصه الاجتماعية وعيوبه النفسية ، من الفضول والصفاقة وإفشـــاء الأسرار . . . وهى عيوب شانت صاحبها ، حتى إن ابنه كان يضيق صدره كلما تحدث الناس عن الكتاب العظيم الذى ألفه أبوه الأحمق ...

وكلما أعيد طبعه — وما أكثر ما نفقت تلك السلعة الأدبية لما فيها من غيبة ولغط — أغضى ببصره خجلا وخزيا من هذا المجد الموبق ! ولكن الأدب أفاد الكثير من هـذا الذى شان المؤلف ، وجلا لنا أصدق صورة للحياة الأدبية فى عصر من أزهى عصور الأدب الإنجليزى . ولن ينفد استمتاع الناس بقراءة هذا السفر على مدى الأيام ... فقلما تضم دفتا كتاب مثل ذلك الحفل الحافل من نبضات الحياة وخلجات العقول سافرة غير متسترة بفضل ذلك الفنان الذى لا يشق له غبار فى رسم « النفوس العارية » .

*

ونجتزئ من ذلك الكتاب الذى تربو كلماته على نصف مليون كلمة ببضعة نماذج تبين مذهبه فى الكتاب ، وأسلوبه فى التأليف ورسم الشخوص ، وقصاراها أن تكون مضغة يسيرة من مأدبة حافلة بأشهى الألوان ولكنها قصاصات من صورة واحدة هائلة تفقد معظم روعتها بالاجتزاء .

* حدثنى الدكتور آدمز أن جونسون كان محبوباً وهو طالب فى اكسفورد . يحظى بملاطفة الجميع ولذا كان كثير المزاح والمرح والمجون . فنعم بأسعد أيام حياته هناك ... وهذا من أدمغ الأدلة على خداع المظاهر ، وعلى أنه قلما يعرف أحد منا الحقيقة الباطنة لشخص من خلطائه ... إذ حقيقة الأمر أنه كان فى تلك الفترة شـديد التأذى من فقره وعلته . ولما ذكرت له ما سمعته من الدكتور آدمز قال لى :

— آه يا سيدى ! لقد كنت مجنوناً عنيفاً وقتئذ . وكانت المرارة هى ما خالوه مجوناً . فقد كنت شديد الفقر ، واعتزمت أن أمهد طريقى بأدبى وقريحتى ، فتجاهلت كل قوة وسلطان .

* ومما سمعته من مستر جاريك أدركت أنه لم يكن محل احترام كبير من تلاميذه فى مدرسته الخاصة ، فغرابة حركاته واشاراته كانت تثير ضحكهم . وكان الشياطين الصغار يسترقون السمع ، ويسترقون النظر أيضاً من ثقب مفتاح باب حجرة نومه ، ليتندروا فيما بعد بطرائف تدليله وغزله الغريب الذى يبثه زوجته المحبوبة ! وكان يدعوها « بتسى » وهو تصغير إليزابث . . . ولا ريب يبدو ذلك التصغير مدعاة للضحك إذا خوطبت به امرأة فى سنها المتقـدمة وحجمها الضخم ! فهى كما وصفها لى مستر جاريك سيدة مفرطة البدانة ، صدرها أكبر من المألوف حتى بالنسبة لجسمها ، وخداها متضخمان ، يعلوهما طلاء أحمر صارخ . . . وثيابها بادية التبرج ، وكلامها يغلب عليه التكلف ، وسلوكها كله ينطق بالحذلقة .

* سأجتهد فى تقديم الدكتور أوليفر جولد سميث إلى القراء وأعرفهم بخلائقه العجيبة : إنه رجل من أهل إيرلنده ... عقله أشبه بالتربة الخصبة القريبة الفور التى لا تضرب فيها الجذور العميقة ... فالبلوطة الشاهقة لا تنبت هناك ، وقصاراها أن تنبت الزروع الصغار التى تروق للنظر فى تباينها الشائق . . . وقد تناقل الناس عنه أنه يأتى بالحماقات حين يتكلم ، ولكن هذا الزعم مبالغ فيه حقيقة ... ففيه بلا شك رعونة غير عادية على النحو المألوف فى بنى وطنه ... وكثيراً ما تثير عباراتهم الضحك ... وهو أقرب إلى أن يكون ما يسميه الفرنسيون « طائشاً » وكثيراً ما يدفعه الغرور إلى الخوض فى مسائل لا علم له بها ، ومن غير تدبر فى الغالب . وهو قصير القامة جلف المظهر ، يوحى شكله بأنه رجل علم يتكلف سمات السادة !

* صارحت الدكتور جونسون بما يلغط به البعض حول قبوله معاشاً من الملك الحالى (جورج الثالث) وهو من أسرة هانوفر التى اغتصبت حق الملك جيمس . فضحك ضحكة مجلجلة وقال لى :

— ما أحمق تلك الضجة التى يثيرونهـا حول المسألة . وكل ما هناك أنى قبلت معاشاً يتناسب مع قيمتى الأدبية . وما زلت بعد قبوله الرجل الذى

كنته من قبل ، ولم تزل مبادئى كما كانت ... وكل ما هنـــاك أننى (وابتسم) لا أستطيع الآن أن ألعن آل هانوفر ، وليس من اللائق أن أشرب نخب الملك جيمس بنبيذ أدفع ثمنه من مال الملك جورج . ولكنى أعتقد يا سيدى أن لذة لعن آل هانوفر وشرب نخب الملك جيمس ثمت ما يعوضها وزيادة فى الجنيهات الثلثمائة كل سنة !

* وضحك جونسون كثيراً عندما ذكرت أمامه تلك العبارة التى يشيعها « فوت » ويتناقلها النـــاس متفكهين ، عن رأيه فى شريدان وقال :

– وإنه ياسيدى لغبى غباء طبيعيا ، بالفطرة ! ولكن لابد أن الرجل أجهد نفسه كثيراً جداً ليصل إلى ماهو عليه الآن ... فهذا التطرف فى الغباء ياسيدى ليس من صنع الطبيعة !... وها أنت ذا ترى أنى لم أبخسه قدره !

* ولما ذكرت له أنى سمعت فى صباح الأحد عظة ألقتها سيدة من جماعة يقال لهم « الكويكر » قال لى :

– إن المرأة ياسيدى حين تعظ أشبه بالكلب حين يسير على قائمتيه الخلفيتين ... لا تحسن ذلك العمل ، ولكنك تعجب على كل حال لحدوثه !

* فى العربة كان معنا شاب هولندى وسيدة بدينة متقدمة فى السن ، وتحـــدثت السيدة عن شدتها فى تربية بنيها ، فقال لها الدكتور جونسون :

– ليتك ربيتنى ياسيدتى كذلك ، فقد كنت طفلا شديد الكسل ! ولم يزل الكسل من طبعى طول حياتى

– أنا واثقة ياسيدى إنك لست كسولا ...

– بل هى الحقيقة ياسيدتى وهذا الشاب الذى معى مثلى فى الكسل . أرسله أبوه إلى أدنبره فالتزم الكسل وأرسله إلى جلاسجو فظل على كسله ، وأرسله إلى لندن فثابر على الكسل ، وهو الآن فى طريقه إلى أوترخت حيث يواصل كسله كالمعتاد !

وعندما تحدثت السيدة بامتعاض عن ويلات محاكم التفتيش ، انطلق يدافع عنها ، لأنها تقتلع بوادر الزيغ قبل أن تستشرى ، وعجب كل السامعين من غرابة رأيه ، ولكنى لم أعجب ، فإنى أعرف ولعه بالإنحياز فى الجدل إلى الرأى الضعيف ، ليبرز قوته فى النقاش

* ولما ذكرت له أننى قضيت بعض الوقت فى أوربا مع روسو أظهر استياءه لفســـاد صحبتى ، فقلت له :

– لا إخالك يا سيدى العزيز ترمى روسو بذلك الوصف . أتظنه حقاً رجلا سيئاً ؟

– إن كنت تقصد الهزل فلا داعى للكلام فى الموضوع . أما إن كنت تقصد الجد فأنا أظنه من أسوأ الناس ؛ وأراه وغداً ينبغى أن يطرد من حظـــيرة المجتمع ، وهو ما حدث بالفعل ! لقد نفته من أراضيها ثلاث أمم أو أربع ، ومن الخجل أن يجد من يدافع عنه فى هذا البلد ! .

– أنا لا أنكر يا سيدى أن قصتـــه (إلوز الجديدة) قد يكون بها ما يضير الناس . ولكنى لا أحسبه سيئ النية .

– هذا لا يجدى . إذ ليس فى مقدورنا أن نثبت سوء نية إنسان . وفى وسعك أن تخرق بالرصاص دماغ شخص ما ثم تزعم أنك كنت تنوى أن تخطئه ، ولكن القاضى خليق أن يأمر بإعدامك ... إن روسو يا سيدى رجل سيئ للغاية ...

– أتظنه فى مثل سوء ڤولتير يا سيدى ؟

– من الصعب يا سيدى أن تحكم أيهما شر من صاحبه !

* وبصدد ما ينادى به روسو من المساواة ، قال جونسون :

– ما أبعدها دعوى عن الحق أن الناس متساوون بالفطرة : فما من قوم تتركهم معاً نصف ساعة إلا

وجدت نفراً منهم اكتسبوا رجحاناً وسيطرة على الباقين ..

* ولج شاب ذات مساء فى مناقشته حول سلطة الدولة على رعاياها ، فقال له جونسون :

– إنك لتجادل الآن يا سيدى كما كنت أجادل أمى وأنا طفل ، عند ما خيل إلى أنى صرت أريبا ... والآن أدركت أنها كان ينبغى أن تضربنى بالسوط عقاباً لى على ذلك الفعل !

* وقلت له ذات مرة بعد حديث اشترك فيه جولد سميث حول تقاعس جونسون عن الكتابة فى تلك الفترة وإخلاده للراحة :

– إنى لأتساءل يا سيدى إن كانت الكتابة أمتع لديك من الامتناع عن الكتابة ...

فقال لى باقتضاب :

– تساءل ما شئت !

* لمت صديقاً لى على زواجه مرة ثانية ، لما فى ذلك من عدم رعاية لعهد زوجته الراحلة ، فقال جونسون:

– كلا يا سيدى . الأمر بالعكس ! إنه إن لم يتزوج الآن مرة ثانية كان معنى ذلك أن زوجته الأولى بغضت إليه الزواج . أما إذا تزوج ففى ذلك تنويه عظيم بزوجته الأولى ، لأنه يدل على أنها أسعدته بالزواج الأول فأغراه ذلك باستئناف السعادة مرة أخرى .

* أقبل جولد سميث يختال فى حلة جديدة حمراء، وركبه من فى الندوة بالسخرية ، فقال :

– إن الحائك عند ما جاءنى بها جعل يتوسل إلى أن أذكر اسمه وعنوانه لكل من يسألنى عمن صنع هذه الكسوة الأنيقة لى .

فقال جونسون :

– لا عجب يا سيدى ! ذلك لأنه كان يعلم أن لونها الغريب سيجمع حولك الخلق ليحملقوا فيها فأراد أن يتخذك إعلاناً عن مهارته واقتداره على صنع الثياب حتى ولو كانت من أسخف الألوان .

* أطال متحدث طارئ على الندوة فى الكلام عن لذع البعوض وما إلى ذلك من الهوام فى بعض الأماكن . . . واستغرق نحو ثمانى دقائق فى وصف مفروغ منه ، فلما انتهى قال جونسون :

– مما يؤسف له يا سيدى أنك لم تلاق فى ذلك المكان أسداً مثلا ، فإن البعوضة وقد استغرقت منك كل هذا الزمن فى الحديث عنها ؛ فما أحرى الأسد أن يستغرق وصفه على لسانك حولا كاملا !

* ولما كان من عادته أن يضحك من بعض الناس فى حضورهم ويركبهم بالدعابة حتى يضحك المجلس كله منهم ، سألته :

– أتظن من اللائق ياسيدى فى جميع الأحوال أن تضحك من شخص وهو حاضر ؟

– الأمر يتوقف على الشخص وعلى الموضوع . فإن كان الشخص هيناً ، والموضوع هيناً ، فإنك لن تسلبه شيئاً ذا قيمة حين تضحك منه !

* وسألته حين عاد من مأدبة دعى إليها مع نفر من « خيار الناس » هل كان الحديث ممتعاً ، فقال :

– كلا ياسيدى . فقد قيل «كلام » كثير ، ولكن لم يكن هناك حديث ... لأنه لم يكن هناك موضوع للنقاش !

* وكبح ذات مرة من كثرة مباهاتى بنفسى أمام الحاضرين ، فقال لى :

– إنك تكثر المباهاة بنفسك يا بوزويل حتى لتثير السخرية بك . وإنك لتذكرنى عندئذ برجل دخل حانة على الطريق ووقف فى مطبخها يستدفئ ثم قال للجالسين هناك بغير مناسبة :

– ألا تعرفون من أنا ؟

فقالوا له :

– لم يحصل لنا هذا الشرف .

فقال :

– أنا فلان العظيم ، مخترع ثقالات الورق !

* وقال لى ذات مرة إحدى ملاحظاته الثاقبة عن النفس البشرية .

– ما من شئ يثير الناس عليك مثل موهبة الحديث البارع العذب ، فإنهم يبدون السرور فى وقته وهم يلعنونك فى سرائرهم حسداً لك !

* وعلى شدة جونسون فى الجدل واقتداره على سحق خصومه ، لم يكن إنسان أكثر منه أهبة للاعتذار لمن يتضح له أنه قسا عليه بغير حق . ومن ذلك أن ورقة من أوراق تجارب الطبع لبعض أعماله حملت إليه ، فوجد فيها خطأً فى الترتيب ، ورفض أن يقرأها وطلب وهو ثائر أن يرسلوا إليه من قام بالترتيب (توضيب) وكان ذلك الشخص هو « مانبج » المعروف بدماثته ورزانته ، وهو الذى قام بترتيب نصف قاموس جونسون والجانب الأكبر من كتابه « حياة الشعراء » وحضر الرجل وأبرز الأصل المخطوط ، فتبين جونسون على الفور أنه لا لوم عليه ، فانبرى يقول له بحرارة وصدق ..

– سيدى المرتب ، أسألك الصفح ! أسألك الصفح ياسيدى المرتب مراراً وتكراراً ...

* وسخاوته وإنسانيته فى معاملة البائسين يكاد يعز نظيرها ، والحادثة التالية ثبتت صحتها عندى .. فقد كان عائداً إلى بيته بأخرة من الليل حين عثر بامرأة مستلقية فى الطريق وقد أعجزها الإعياء عن المسير فحملها على ظهره حملا إلى بيته ، حيث اكتشف أنها من اللواتى تردين فى أحط مهاوى الرذيلة والفاقة والمرض . فلم يعنفها أو يطردها ، بل أولاها كل رعاية وحنان مدة من الزمن غير قصيرة ، وتكبد فى ذلك نفقة باهظة إلى أن استردت عافيتها فدبر لها مورداً للرزق والتكسب الحلال .

* ذم بعضهم أمام جونسون أهل إيرلندا لاندفاعهم وبعدهم عن الاعتدال فى القول والفعل ، فقال :

– بل إنى أراهم يا سيدى على قسط من العدل لا بأس به ، لأن الواحد منهم لا يذكر أحداً من مواطنيه بخير !

* وكان سيئ الرأى فى أهل أسكتلندة ، فلما قدمنى له بهذه الصفة مستر ديفز لأول مرة قلت له متودداً لأصل إلى قلبه :

– إنى فعلا من أسكتلندة ، ولكن لا حيلة لى فى ذلك !

ولأمر ما لم يرق له هذا القول ، فأجابنى مزمجراً :

– ما أكثر من يتمحلون هذا العذر يا سيدى من مواطنيك ... إنهم أكثر مما ينبغى !

* لما حصل شريدان على معاش من الملك أثير الموضوع أمام جونسون ، فحمل عليه كعادته ... وغضب شريدان أشد الغضب عنـــد ما نقلت إليه ما قيل ، ولم يجد تكريرى وتأكيدى أن جونسون يحبه فى قرارة نفسه وسيستقبله خير استقبال إذا لقيه ... وبلغ من حقده على جونسون أنه غادر فجأة داراً كان مدعواً إليها عندما علم أننى وجونسون سنأتى بعد قليل ...

* وسمعته ثائراً ضد جاريك لهنة صدرت منه ، فحاولت تهدئته قائلا :

– الكل هنا يعرفون مبلغ إكبار مستر جاريك لك ، فلا أظنه كان يقصد ...

– إنى أعرف جاريك من قبل أن تعرفه أنت بدهر طويل ، فلست أرى لك أدنى حق فى الخوض فى هذا الموضوع .

* وقبل مماته بأيام قلائل سأل السير هوكنز أين سيدفن؟ فلما قال له إنه سيدفن فى كاتدائيـــة وستمنستر شعر بالارتياح شعوراً طبيعياً بالنسبة لشاعر مثله بل فى رأيى أنه ارتياح طبيعى بالنسبة لرجل صاحب مخيلة عموماً لأنه لم يكن شيد مقبرة خاصة لنفسه وذويه .